محمد العامري.. فنان تشكيلي يرسم مجتمع وادي الأردن بالكلمات - Reader Mode

لماذا اختار الفنان التشكيلي محمد العامري في كتابه "شجرة الليف"، الذي صدر أخيرًا في عمان، رسم بيئته بالكلمات، وليس بفرشاة ألوانه؟ ما عليك إلا أن تدهش بما يكتب أكثر مما تدهش بلوحاته الفنية الحداثية المنتشرة في معارض عربية وعالمية كثيرة.

كتاب كثيرون كتبوا عن عمان وإربد والكرك والطفيلة والزرقاء، ولكنني لم أقرأ لكاتب مبدع واحد كتابًا متكاملًا عن حيوات مجتمع أغوار وادي الأردن، غير هذا الكتاب الفني النوعي المدهش، وليس أي كتاب.

كنت أسمعها كثيرًا تلك العبارة من أهل الشفا، سواء كانوا من الشمال أو الوسط أو الجنوب، كلهم يجمعون على ذكر عبارة "هذا غورنا"، هم يسبرون أغوارهم،على رأي نقاد الأدب، هم يحلبون أغوارهم، هم يجلدون أغوارهم، هم يتعالون على أغوارهم، رغم أنها دائمًا ما تعطيهم الخضار والفواكه والطعام والماء، ولكنهم لا يعطونها شيئًا، تجدهم يضنون عليها حتى بالكتابة.

ولكن الفنان التشكيلي " محمد العامري" ابن بيئته، الذي يقول هنا: "أسميناه الغور لأنه يغور بك إلى أسفل منطقة في الكرة الأرضية." شمر عن فرشاته، وصبغ لنا هذه اللوحات الفنية "المؤلمة الجمال".

لم تكن لوحاته هذه المرّة بالفرشاة، بل كانت لوحاته بالكلمات، قصصًا مذهلة مُرطّبة بالجفاف، لا فرح فيها، سوى شيطنة الطفولة التي تفرح لأية حركة زعرنة تواجهها، لا أريد مزيدًا من التنظير، شاهدوا معي هذه اللوحات التي رسمها العامري على صفحات الكتاب بالكلمات:

"شلال سد زقلاب يمارس طقسًا جنسيًا مع مجراه ليبرد حرارة الأرض التي لا تختلف أبدًا عن جوف بندقية تعبت من قذف البارود." إنه يشبّه اختراق الشلال للمنحدر بعملية جنسية، ولنسمها؛ عملية زراعية، إذ يقوم الشلال بهذه الممارسة الجنسية ليبرد حرارة الأرض."

لاحظ تشبيه حرارة الغور بجوف بندقية تعبت من قذف البارود، إنها حرارة لاسعة، حرارة حارقة، حرارة قاتلة لا تطاق، ثم يقول بعبارات سريالية:

"هذا الشلال الهادر من الذكريات، لم يزل ماثلًا في تفاصيل الجسد، إذ يسح ماؤه في خريف العمر."

إنه مزج كتابي بريشة فنان بيّن صوت الشلال الهادر، الذي ينسحب من الذكريات القديمة، ولم تزل بصماته ماثلة في تفاصيل أجساد أهل الغور، ولا يتوقف تدفقه بل يستمر منسحبًا إلى خريف العمر، هذا الشلال عمر من الحكايات والأجساد المنسحبة من طراوة الطفولة وحتى خريف العمر، هذه التعبيرات لا يستطيع كاتب عادي أن يطرزها على مساقط شلال غوري مختلف عن كل ما نتخيله من الشلالات.

كان محمد العامري يلهث حرارةً في تموزيات الأغوار، حيث الأرض كائن حي، جسد كبير مثل باقي الأجساد، إذ يتعرق، والشجر والماء ليس كأي شجر وماء، إنه يلهث بخارًا، صعودًا إلى سماوات جف أزرقها من الصهد.

لاحظ أن اللون الأزرق قد تلاشى لشدة الحر.. الحر القاسي جعل لون السماء الزرقاء يبهت، ما هذا التصوير الواعي الحساس لكل مظاهر الطبيعة الغورية المظلومة المعطاءة؟

"كان يقف في مهب ختان الأشجار، الأشجار هنا أيضاً تعاني من آلام ختانها.. " لم يقل في مهب رياح الأشجار بل قال: "في مهب ختان الأشجار، في مهب الغرام الممنوع، في مهب البيدر وهو يتنفس سنابله."

هذه العبارات نصوص شعرية تتناغم موسيقاها مع لهيب أفران الحر الغوري، كان العامري يتعايش مضطرًا مع فرن أرضي يسكب الملل في أشياء تكاد أن تسيح في فراغ الذاكرة، حتى الذاكرة تسيح من هذا الحر الشديد.

هذا التصوير هو رسم بالكلمات، هذا النسيج المطرز من الكلمات يخلق لوحات غورية لم يرسمها أحد، ولو غاب عنها العامري لضاعت في غياهب التاريخ، ولهذا فهو يُقدّر إذ ثبّت المكان والزمان في بوتقة فنية رائعة.

وأما عن الأسلوب، فهو يتحدث معك مباشرة، ويسرد عليك مشاعر شقاوة مراهقته المجففة دون تكلف، إنه يكلم القارئ دون وسيط إذ يقول: "كانت الأشياء تبدو متحفزة للانقضاض عليك، كانت تنام معك في الفراش، كانت تسكن رعشات الأصابع حين تذهب إلى جزئك السفلي خلسة، حبل من الرغبة يجلدك في طراوة الاستحمام، وذكريات مائية لا تعطيك فرصة للنسيان."

إن الفنان الكاتب لا يريد أي فاصل بينه وبينك إذ يكلمك وجهًا لوجه، فتشعر بحرارة أنفاسه المتصاعدة أمامك، هذا الأسلوب كثيرًا ما أستخدمه في رواياتي وقصصي، لكسر الحواجز بيني وبين القارئ، "سأحكي لك الحكاية كلها..ما حدش يتدخل بيننا".

إن الصور التي يرسمها العامري للأغوار تتفوق على لوحات الفنانين، ألم تقتنع؟ اقرأ كل عباراته التصويرية، ومنها هذه العبارة: "الكلب الكسول النذل ذو الذيل أشبه بحرف (واو) مكسو بشعر كثيف، يقعي في ظل حائط مهجور، الحمار الكئيب في سفح الجبل، الديكة الرعناء، القطط الشرسة، الطيور الحذرة، والحرثون الواقف وحيدًا على حجر، ورأسه يعلو ويهبط، البنادق والرايات، الأعشاب وثمار الباذنجان، شجرة التوت الرقيقة، الحصان صاحب العين الزجاجية، كل شيء أصبح فيك ويشبهك تمامًا، حياة القرية المفعمة بأصوات الماعز وصياح الديكة الفجري، ونباح كلب جائع في جوف الليل لم يوجد للحراسة بل كان جزءًا اعتياديًا من كادر القرية."

هذه الصور لا يستطيع رسمها سوى فنان مبدع خارج من أتونها.